

الفصل الخامس والعشرون

هنرى الثامن والأديار

١٥٣٥ - ٤٧

١ - تقنية الحل

كان هنرى عام ١٥٣٥ مشغولاً جداً بالحرب والحرب فلم يستطع أن يلعب دور البابا جملة أو تفصيلاً ، فعين كرومويل الذى يؤمن بفلسفة اللا أدريّة (١) « نائبا للملك فى كل قضائه الكنسى » . ووجه كرومويل وقتذاك السياسة الخارجيّة والتشريع الوطنى والسلطة القضائيّة العليا والمجلس الخاص والمخابرات وقاعة النجم وكنيسة إنجلترا ، ولم يكن لولزى فى أوج مجده قط أصابع طويلة متشبثة بفطائر غضة بهذه الكثرة . وكان يراقب أيضاً كل الطباعة والنشر ، وأقنع الملك بأن يحرم طبع الكتب أو بيعها أو استيرادها إلا بعد الحصول على موافقة وكلاء التاج ، وأمر بنشر الكتب المناهضة للبابوية على نفقة الحكومة .

وقام جواسيس كرومويل ، وهم لا يحصون ، بإبلاغ كرومويل بكل حركات أو بيانات المعارضين لهنرى أو له . وكانت أية إشارة تدل على الاشتقاق على فيشر أو مور وأية دعاية تدور حول الملك يمكن أن تؤدى إلى محاكمة سرية وسجن طويل (٢) ، وكان التنبؤ بوفاة الملك يعرض المرء لفقد حياته (٣) .

وقام كرومويل ، فى بعض القضايا الخاصة بدور ممثل الاتهام والمخالفين

والقاضي ليصل إلى نتائج محققة . وكان كل واحد في إنجلترا ينشأه ويكرمه . وكانت أكبر معضلة واجهها هي أن هنري كان مفلسا ، على الرغم من سلطانه العظيم . وكان الملك يتوق إلى زيادة حجم البحرية والإكثار من مرافئه وموانئه أو تحسينها ، وكانت حاشيته تتجاوز الحدود ونفقاته الشخصية باهظة ، ونظام كرومويل في الحكم يحتاج إلى نهر عريض من الأموال . فكيف يجمع المال ؟ كانت الضرائب مرتفعة إلى الحد الذي تقابل فيه بمقاومة تجعل الحماية تكلف من النفقات أكثر مما تدر من الربح ، وكان الأساقفة قد استنزفوا أبرشياتهم لتهدئة سورة الملك ، ولم يكن هناك ذهب يتدفق من أمريكا ، كما يتدفق يوميا لإغاثة الإمبراطور عدو إنجلترا . ومع ذلك كانت في إنجلترا مؤسسة واحدة ثرية وموضع ريبة وعاجزة لا تجد من يدافع عنها وهي الأديار . كانت موضع ريبة لأن ولاءها الأخير كان للبابا ، واشترائها في قانون السيادة يعد من قبيل المداينة وغير تام ، وكانت في نظر الحكومة هيئة أجنبية ملزمة بتأييد أي حركة كاثوليكية ضد الملك . وكانت عاجزة لأنها في كثير من الحالات كفت عن القيام بوظائفها التقليدية في مجالات التعليم والضيافة والبر ، وكانت لا تجد من يدافع عنها لأن الأساقفة استاءوا من إعفائهم من المراقبة الأسقفية ، ولأن الأشراف ، وقد أفقرتهم الحرب الأهلية ، طمعوا في ثروتها ، ولأن طبقة رجال الأعمال كانوا يرون في الرهبان والإخوة من الرهبان متلفين كسالى للموارد الطبيعية ، ولأن القسم الأكبر من العامة ، ومنهم كثير من الكشاكسة الصالحين ، لم يعودوا يؤمنون بفاعلية الخلفيات التي كان الرهبان يعرضونها ، أو بالتدابير التي كان يقيمها الرهبان للموتى ، إذا دفع لهم الأجر . وكانت هناك سوابق رائعة لإغلاق الأديار ، فقد أغلقها زوينجلى في زيورخ والأمراء اللوثريون في ألمانيا وولزي في إنجلترا . وكان المجلس النيابي قد صوت (١٥٣٣)

بالموافقة على تحويل الحكومة ساطة التفتيش على الأديار وإجبارها على تقويم اعوجاجها .

وأرسل كروموويل في صيف عام ١٥٣٥ ثالوثا من « المفتشين » كل منهم معه عدد كبير من الموظفين لفحص حالة أديار الرهبان والراهبات في إنجلترا من النواحي البدنية والأخلاقية والمالية وتقديم تقرير عنها . وكذلك للتفتيش على الجامعات والكراسي الأسقفية كإجراء مقبول . وكان هؤلاء « المفتشون » شبانا متهورين ، « من المرجح أن يسوموا بتنفيذ عملهم في إتقان أكثر مما يتوسلون في تنفيذه بالرقعة (٤) » ، ولم يكونوا في عصمة من قبول « المدايا (٥) » ، وكان « الهدف من مهمتهم الحصول على قضية للتاج ، ولعلمهم لجأوا إلى كل الوسائل المخسولة لهم لحث الرهبان والراهبات على إدانة أنفسهم (٦) . ولم يكن من الصعب أن يعثر في ٦٠٠ دير في إنجلترا على عدد مقنع ويدل على وجود انحرافات جنسية - وأحيانا انحرافات جنسية شاذة (٧) - ونظام متحلل واستغلال لمخلفات زائفة هدفه اكتناز المال ، وبيع أوعية مقدسة أو مجوهرات مقدسة لإضافة المزيد إلى ثروة الدير ، وما فيه من ضروب الراحة (٨) وإهمال الشعيرة أو الضيافة أو البر (٩) ولكن التقارير أغفلت عادة ذكر نسبة الرهبان الآثمين إلى الرهبان الجديرين بالتقدير ، والتمييز بوضوح بين الثروة والدليل (١٠) .

وقدم كروموويل للمجلس النيابي الذي انعقد في ٣ فبراير عام ١٥٣٦ « كتابا أسود » ، ضاع الآن ، يكشف عن الاخطاء في الأديار ، وينصح ، باعتدال استراتيجي ، بإغلاق أديار الرهبان والراهبات التي يبلغ دخلها ٢٠٠ جنيه (٢٠٠٠٠ دولار ؟) أو أقل في العام . فوافق المجلس النيابي الذي كان معظم أعضائه قد اختيروا بواسطة معاوني كروموويل (١١) . وعين الملك محكمة المزايدات لكي تسلم لصالح خزانة الملك أملاك وموارد هذه الأديار الصغرى البالغ عددها ٣٧٦ . وأطلق سراح ألفي رادب ليذهبوا للدور

أخرى أو يخرجوا إلى العالم - وفي الحالة الأخيرة كانوا يمنحون مبلغاً صغيراً أو معاشاً يسد ومقهم إلى أن يجدوا عملاً . ولم يكن بين ١٣٠ دير للراهبات سوى ١٨ دييراً يتجاوز دخلها ٢٠٠ جنيه ، ولكن لم يغلق منها وقتذاك إلا نصفها .

وقامت في الشمال ثورة ثلاثية قطعت دراما الحل . وكما نشأت المسيحية في المدن ووصلت إلى القرويين - الوثنيين - فكذلك نهض الإصلاح الديني في المدن بسويسرة وألمانيا وإنجلترا ، ولقى مقاومة دامت طويلاً في الريف . وتقلص ظل البروتستانتية في إنجلترا وسكوتلندة كلما ابتعدت المسافة من لندن أو أدنبره ، ووصلت متأخرة إلى ويلز وشمالي إنجلترا ، ولقيت قرحياً ضئيلاً في إيرلنده . وفي المراكز الشمالية بإنجلترا أشعل سلب الأديار الصغرى نار الاستياء التي كانت مهياة للاشتعال منذ وقت طويل بسبب الضرائب المتزايدة والحكم الملكي المطلق على رجال الكايروس والتحرير من الخفي للقساوسة . وانضم الزهبان ، الذين جردوا من أموالهم ووجدوا أن من الصعب عليهم الحصول على مرتباتهم أو على عمل ، إلى المتعطلين العديدين المكتئبين ، أما الراهبات اللاتي جردن من أملاكهن واللاتي كن يتجولن من مأوى إلى مأوى فقد أثرن غضب الجمهور ضد الحكومة . وأهلب معاونو كرومويل « نار » الغضب بتزيين أنفسهم بأسلاب المعابد بالأديار وصناعة صديريات من القباء ، وسروج من صدرات القساوسة وقرابات خناجر من محافظ الخلفات (١٢) .

وفي يوم ٢ أكتوبر سنة ١٥٣٦ هاجم جمهور في لوث مفتشا ، كان قد أغلق تواديراً للراهبات في لجبورن المجاورة لها ، وتم الاستيلاء على سجلاته وأوراق اعتماده وأحرقت وصوب إلى صدره سيف وأكره على أن يحلف يمين الولاء للعامة . وحلف كل من كان حاضراً بين الجمهور يمينا بأن يكون مخلصاً للملك والكنيسة الرومانية المقدسة . وفي اليوم التالي احتشد

جيش ثائر في كايستور على مسيرة بضعة أميال ، حرضه قساوسة ورهبان لا مأوى لهم ، واضطر أعيان الجهة - ومنهم من فعل ذلك باختياره - إلى الانضمام لجيش الثوار . وفي اليوم نفسه تجمع حشد كبير من القرويين في هورن كاسل ، وهي مدينة أخرى تقع في لنكولنشاير . واتهم حاجب أسقف لنكولن بأنه عميل لكرومويل ، وانتزع من فراشه ، وضرب حتى الموت بالهراوات . وصمم الثوار علمايصور محرثا وقدحا وبوقاً ، و«الكلمات الخمس الأخيرة» للمسيح ، واستخلصوا مطالب أرسلت إلى الملك : يجب أن تعاد الأديار وتخفف الضرائب أو تيسر ، وألا يدفع رجال الاكليروس ضرائب العشور أو موارد السنة الأولى من التعيين إلى التاج ، وأن يبعد «الدم الخبيث» (أى كرومويل) من المجلس الخاص ، وأن يقال الأساقفة الهراطقة - وبخاصة كاتر ولاثير - ويعاقبون :

وانضم إلى الثورة مجندون من الأقاليم الشمالية والشرقية . واحتشد في لنكولن حوالي ٦٠,٠٠٠ رجل ، ولبثوا يرقبون رد الملك .

وكان رده عنيفا لا يقبل التفاهم . واتهم الثوار بإنكار جميل حاكم كريم ، وأصر على أن اغلاق الأديار الصغرى إنما تم بإرادة الأمة التي عبرت عنها عن طريق المجلس النيابي ، وأمر الثائرين بتسليم زعمائهم ، وأن يتفرقوا وينصرفوا إلى بيوتهم ، وإلا تعرضوا لعقوبة الإعدام ومصادرة أموالهم . وفي الوقت نفسه أمر هنرى أعوانه بحشد قواتهم والزحف بقيادة إيرل أف سفولك لمساعدة اللورد شروسبرى ، الذى كان قد نظم تابعيه لصد الهجوم ، وكتب رسائل خاصة إلى الأشراف القلائل الذين كانوا قد انضموا إلى الثورة . وعند ما أدرك هؤلاء وقتذاك أن الملك لا يمكن إرهابه ، وأن الثوار المسلحين تسليحا سيئا سوف يقهرون وشيكا ، اقتنع الكثيرون منهم بالعودة إلى قراهم ، وسرعان ما ذاب جيش الثوار فوق احتجاجات

القساوسة . وسلمت لوث خمسة عشر زعيما وأسر مائة آخرون ، وأعلن صدور عفو منكي عن الباقين . وأخذ الأسرى إلى لندن والبرج وشنق ثلاثة وثلاثون ، منهم سبعة قساوسة ، وأربعة عشر راهبا ، وأطلق سراح الباقين على مهل (١٢) .

وفي غضون ذلك كانت هناك فتنة أشد خطورة قد نمت في يوركشاير . اوجد رتشارد آسك ، وهو محام شاب ، نفسه متورطا بدنيا وعاطفيا في ولحركة . وأفزح محام آخر فتولى قيادة فرقة ثائرة في بفرلي ، وأعار اللورد دارسي أف تمبلهرست ، وهو كاثوليكي متحمس ، الثورة تأييده الخفي ، وانضم اثنان من أسرة برسي ، وحذا حذوهم معظم أشرف الشمال .

وفي ١٥ أكتوبر سنة ١٥٣٦ ضرب الجيش للرئيسي ، المكون من ٩٠٠٠ رجل ، الحصارا على يورك . وأجبر المواطنين في المدينة للعمدة على فتح الأبواب . ومنع آسك رجاله من نهب المدينة ، وحافظ بوجه عام على نظام ملحوظ في جيشه غير المدرب . وأعلن إعادة فتح الأديار ، وعاد إليها للرهبان في اغتباط ، وأدخلوا السرور على أفئدة الأتقياء بحرارة ترانيمهم الجديدة . وتقدم آسك واستولى على بومفريه ، واستولى ستابلتون على هل دون إراقة دماء . وانضم آخرون إلى رجال لنكولنشير في تقديم المطالب وأرسلوا للملك : « أن يجمع كل الهراطقة وكتبهم ، ويستأنف الروابط للكنسية مع روما ، وأن يسبغ صفة الشرعية على ماري ، ويعزل مفتشى كرومويل ويعاقبهم ، ويأبى كل تسوير للأراضى العامة منذ عام ١٤٨٩ .

كانت هذه أخرج لحظة في عهد هنري . كان نصف البلاد يحمل السلاح ضد سياسته ، وكانت إيرلنده في ثورة ، وكان بولس بول الثالث

والكردينال بول يمشان فرانسيس الأول وشارل الخامس على غزو إنجلترا
ونخاع الملك . واستجمع قواه المتخاذلة ، وأرسل أوامر إلى كل الجهات
بمخشد فرق موالية ، وفي الوقت نفسه أصدر تعليمات للدوق أف نورفولك
بأن يتغفل الزعماء الثائرين بإجراء مفاوضات . ورتب الدوق مداولة مع
أسك وعدة نبلاء وأغراهم بوعده منه بالعمو عنهم جميعاً . ودعا هنرى
أسك إلى لقاء شخصى ومنحه جواز أمان . فجاء إلى الملك وافتن بعبير
الملكية ، وعاد وديعا ، ولم يلمحتمه أذى إلى يوركشاير (يناير سنة ١٥٣٧) ،
وعلى أية حال فإنه قبض عليه هناك وأرسل سجيناً إلى لندن . وانقطعت
صلة الجيش الثائر بقواده فانشعب إلى فرق غاضبة وساده اضطراب همجى ،
وتضاعفت حالات التمرد . وبينما كانت فرق الملك المتحدة تقرب اختفى
الجيش الثائر كسراب تبتدد (فبراير سنة ١٥٣٧) .

وعندما استوثق هنرى من انهيار الثورة والغزو بما أنكر وعد نورفولك
بالعمو العام ، وأمر بالقبض على من يمكن العثور عليهم من الزعماء مشيرى
الفتنة ، وأعدم الكثيرون منهم ومن ضمنهم أسك ، وكتب إلى الدوق
يقول : « يسرنا أن نراك قبل أن نظوى علمنا مرة أخرى أن تقوم بإعدام
مروع لعدد لا بأس به من السكان فى كل مدينة وقرية ومحلة تكون قد
أجرت ، حتى يكون فى هذا عبرة لكل من تسول له نفسه أن يقوم بمثل
ذلك فى المستقبل . . . وما دامت هذه الاضطرابات كلها قد نتجت
من تحريض الرهبان والكهنة فى هذه البقاع ومؤامراتهم الغادرة ، فإننا
نريد منك فى هذه الربوع التى تأمروا فيها ، ودافعوا عن بيوتهم بالقوة . .
أن تأمر بلا رحمة أو شفقة بشد وثاق هؤلاء الرهبان رجال الكنيسة الذين
ثبت خطوهم بأية وسيلة دون تأخير أو إجراء رسمى (١٤) .

وعندما رأى كرومويل ما لحق بالمعارضة من رعب شديد مضى قدماً

في إغلاق الدور الدينية الباقية في إنجلترا . وحلت يوما كل أديار الرهبان والراهبات التي كانت قد انضمت إلى الثورة وصدورت ممتلكاتها لمصلحة الدولة . وامتد مجال الزيارات التفتيشية ، وأثمرت تقارير عن الخروج على النظام والفجر والحيانة والانحلال . وتوقع كثير من الرهبان سلفا إغلاق الأديار فباعوا المخلفات والنقائس التي في دورهم إلى أعلى مزاييد ، وبلغ ثمن إصبع لسانت أندرو أربعين جنيها (١٥) . وأدين الرهبان في والسنجهام بتزييف معجزات ، وألقي تمثال العذراء ، الذي كان يدر عليهم أرباحا ، في النار . وهدم ضريح سانت توماس بيبيكت التاريخي في كانتربري ، وأعلن هنري الثامن أنه في انتصاره على هنري الثاني لم يكن قديسا حقا ، وأحرقت المخلفات التي أساءت إلى كولييه ، وتفككها إرازموس . ونقلت التحف الثمينة التي وهبها الحجاج الورعون في خلال ٢٥٠ عاما إلى الخزنة الملكية (١٥٣٨) ، ولبس هنري بعد ذلك في إبهامه خاتما محلي بياقونة كبيرة أخذت من الضريح . وسعت بعض الأديار إلى خداع القدر بإرسال المال والهدايا لكرومويل ، وقبل كرومويل كل شيء وأغلقها جميعاً . وما أن حل عام ١٥٤٠ حتى كانت كل الأديار وكل الأملاك الديرية ما عدا كنائس دير الكاتدرائية قد انتقلت إلى الملك .

وعلى الحملة فقد أغلق ٥٧٨ ديرا للرهبان وحوالي ١٣٩ دير للراهبات ، واشتت ٦٥٢١ راهبا أو أخوا و ١٥٦٠ راهبة . وتخلي حوالي خمسين راهبا وراهبتان من هؤلاء عن الرداء الديني ، بيد أن الكثيرين توسلوا أن يسمح لهم بمتابعة حياتهم التي ألفوها في الدير في مكان آخر (١٦) . وفقد حوالي ١٢٠٠٠ شخص ، كانت الدور الدينية تستخدمهم فيما مضى أو كانوا يعتمدون عليها في معيشتهم ، وظائفهم أو مخصصاتهم من الصدقات . وكانت الأراضي والمباني المصادرة تدر دخلا سنويا قدره حوالي ٢٠٠٠٠٠ جنيه

(٢٠٠٠ ر ٢٠٠٠ دولار ؟) ، غير أن عقود البيع التي أبرمت سريعا خفضت الدخل السنوي للأملاك بعد التأميم إلى حوالي ٣٧٠٠٠ جنيه ، ولا بد أن يضاف إلى هذا المبلغ ٨٥٠٠٠ جنيه من المعدن الثمين المصادر ، ومن ثم قد يبلغ ما حصل عليه هنري إبان حياته من جملة الأسلاب والدخل حوالي ٤٢٣ ر ١ جنيه (١٧).

وكان الملك سخيا بهذه الأسلاب . فقد وهب بعض هذه الممتلكات - ومعظمها بآعه بأسعار بعد مساومة - لنبلأ صغار أو مواطنين أحرار كبار - تجار أو محامين - ممن أيدوه أو وجهوا سياسته . وتسلم كرومويل أو اشترى ستة أديار لها دخل سنوي قدره ٢٢٩٣ جنيها ، وتسلم ابن أخيه سير رتشارد كرومويل سبعة أديار تدر دخلا قدره ٢٥٥٢ جنيها (١٨) وكانت هذه أصل الثروة التي جعلت من أوليفر الحفيد الثاني لرتشارد رجلا من رجال الثروة المادية والنفوذ في القرن التالي . وذهبت بعض الأسلاب لبناء سفن وحصون وموانٍ وبعضها ساعد في تمويل الحرب وذهب بعضها إلى القصور الملكية في وستمنستر وتشلسي وهامبتون كورت ، وفقد الملك بعضها في لعب النرد (١٩) . وأعيدت ستة أديار إلى الكنيسة الانجليكانية لتستخدم كراسي أسقفية ، وخصص مبلغ صغير لمواصلة أعمال البر العاجلة التي كان يقدمها فيما سبق الرهبان والراهبات ؛ وأصبحت الأرستقراطية الجديدة التي نشأت بفضل هدايا هنري وعقود البيع التي أبرمها ، عضدا قويا للعرش التيودوري ، ودعامة للمصلحة الاقتصادية ضد أي عودة للكاثوليكية . وقد أبادت الأرستقراطية الإقطاعية القديمة نفسها ، أما الأرستقراطية الجديدة ، التي تأصلت جذورها في التجارة والصناعة ، فإنها غيرت طبيعة الأشراف من السلبية المحافظة إلى عمل إيجابي ، وصبت دما جديدا وطاقة جديدة في الطبقات العليا بإنجلترا . ولعل هذا - والأسلاب كان مصدر خصب العهد الإليزابيثي .

وكانت نتائج التحليل معقدة بلا حدود . ولعل الرهبان المتحررين قد أسهموا بدور متواضع أو لم يسهموا في زيادة عدد سكان إنجلترا من حوالى ٢٠٠٠٠٠٠ عام ١٤٨٥ إلى حوالى ٤٠٠٠٠٠٠ عام ١٥٤٧ (٢٠) وساعدت زيادة مؤقتة في عدد المتعطلين على تخفيض أجور الطبقات الدنيا جيلا كاملا ، وأثبت ملاك الأراضي الجدد أنهم أكثر جشعا من القدامى (٢١).

وكانت النتيجة من الناحية السياسية هي زيادة سلطة الملكية ، وفقدت الكنيسة آخر معقل للمقاومة ، وكانت النتائج من الناحية الأخلاقية ازدياد الجرائم والخصاصة والتسول وتقلص الموارد اللازمة لأعمال البر (٢٢). وأغلق ما يزيد على مائة مستشفى تديرها الأديار ، وقامت السلطات البلدية بتزويد قلة منها بالحاجة . أما المبالغ التي أوصت بها الأرواح الخائفة أو الموقرة للقساوسة ، كتأمين ضد نار جهنم أو نار المطهر ، فقد صودرت على أساس أن هناك أملا في ألا يلحق الموتى أذى ، وانتزع الملك (٢٣) ٢٣٧٤ من الهبات الموقوفة على إقامة قداسات للأرواح . وكانت أقسى النتائج في مجال التعليم . فقد كانت أديار الراهبات تهيئ مدارس للبنات ، وكانت الأديار والقساوسة المشرفون على الهبات المخصصة للقداسات قد حافظت على مدارس وتسعين كلية للبنين ، وحلت كل هذه المؤسسات .

وبعد أن ذكرنا الحقائق بإنصاف لا يشويه إلا تحامل يصدر عن اللاوعى ، فإنه يسمح للمؤرخ بإضافة تعليق افتراضى يعترف به . إن جشع هنرى وجور كرومويل هما اللذان ساعدا مدى جيل على تخفيض حتمى في عدد الأديار الإنجليزية وإضعاف نفوذها . وكانت هذه الأديار قد قامت يوما بعمل يدعو للإعجاب في مجالات التعليم والبر والعناية بالمرضى في المستشفيات ، بيد أن إسباغ الصفة العلمانية على هذه الوظائف كان يسير قدماً في سائر أنحاء غربي أوروبا ، حتى في المناطق التي كانت تغلب عليها

المكاثوليكية : وكان ضعف الغيرة الدينية والنزعات الدنيوية الأخرى تحتجز هدفق المترهبين على المؤسسات الديرية . وانخفض عدد هؤلاء المترهبين إلى حد بدأ أنه لا يتناسب مع فخامة مبانيهم والدخل الذى تدره أراضيهم . ومما يؤسف له أن الموقف قوئل بالاندفاع الفجائى الفظ من كروموويل ، بدلا من خطة وانزى الإنسانية ، والأسلم ، وتنحصر فى تحويل المزيد من الأديار إلى كليات .

وكانت الوسيلة التى لجأ إليها هنرى هنا ، كما فعل من قبل فى سعيه للحصول على ابن ، أمواً من الهدف الذى يلبشه . لم يكن هنا بأس فى وضع نهاية ، إلى حد ما ، لاستغلال ورع ساذج بغش يتظاهر بالورع . وإنا لنعرب عن عظيم أسفنا لما حدث للراهبات اللاتى كن فى الغالب الأعم بشقين قياما بالواجب فى إقامة الصلوات والتدريس وأعمال البر ، بل إن المرء الذى لا يستطيع أن يشاركهن إيمانهن الذى لا يزعزع يجب أن يكون شاكرا لأن هن مثيلات يمددن يد العون مرة أخرى ، بإخلاص بدوم مدى الحياة ، ويلبين حاجة المرضى والفقراء .

٢ - الأيرلندى العنيد ١٣٠٠ - ١٥٥٨

برر الملوك الإنجليز سيطرتهم على إيرلندة على أساس أن قوة معادية فى القارة يمكن فى أى لحظة أن تستخدم هذه الجزيرة المنحصرة للقيام بهجوم جانبي على إنجلترا ، وأصبح هذا الاعتبار ، بعد حب السلطة ، أشد قوة عندما فشلت إنجلترا البروتستانتية فى كسب إيرلندة إلى صفها من الكنيسة الرومانية . وكان الشعب الأيرلندى ، الذى يعشق البطولة والفوضى والمشهور بالرجولة والعنف ، والموهبة الشاعرية ، والذى يفتقر إلى النضج السياسى ، يقاوم كل يوم خضوعه لدم أجنبي ولغة دخيلة .

وازدادت سيئات الاحتلال الإنجليزي . وعاد كثير من ملاك الأراضي ،
الإنجلو - إيرلنديين إلى إنجلترا في عهد إدوارد الثالث ، ليعيشوا هناك في
يسر على ما تدره إيجارات الأراضي الإيرلندية ، وعلى الرغم من أن المجلس
النيابي الإنجليزي ندد مراراً بهذا العمل فإن « مأكية الأرض الغائبة » ازدادت
خلال ثلاثة قرون ، لتصبح حافظاً أكبر للثورات الأيرلندية . ومال الإنجليز
الذين ظلوا في إيرلندا إلى الزواج من فتيات إيرلنديات ، وامتزجوا تدريجاً
بالدم الإيرلندي ، وألفوا طرق العيس الإيرلندية . وكان المجلس النيابي
الإيرلندي ، الذي يسيطر عليه المقيمون الإنجليز ، ويغلب عليه النفوذ
الإنجليزي ، توافاً إلى سد هذه البالوعة السلالية فأجاز قانون كلكتي الشهر
(١٣٦٦) الذي منع ، مع بعض النصوص السخية التي لا تخلو من حكمة
الزواج المختلط أو التريب أو أى علاقات ألفة أخرى بين الإنجليز والأيرلنديين
في إيرلندا وأى حديث بالإيرلندية أو تقليد للعادات الإيرلندية أو ارتداء
الزى الإيرلندي بواسطة الإنجليز ، وإلا تعرضوا للسجن وخسارة الممتلكات .
ولم يكن يحق لإيرلندي أنذاك أن يستقبل فى أى منظمة دينية إنجليزية ،
ولا لمنشدين أو قصاصين إيرلنديين أن يدخلوا بيوتاً إنجليزية (٢٤) . وفشل هذا
الحظر فقد تألفت الورود الإيرلندية ، وفاقته سلطة القانون واستمر الاندماج
السلالى فى تلك المناطق الضيقة مارش أو بوردر أو بيل التي لم يجرؤ الإنجليز
على السكنى إلا فيها وحدها (*) .

وكان يمكن إيرلنده إبان حروب الوردتين أن تطرد الإنجليز ، لو أن
الزعماء الإيرلنديين اتحدوا ، ولكنهم آثروا النزاع الأخرى ، وشجعهم
أحياناً على هذا الذهب الإنجليزي . ووطد هنرى السابع من جديد السلطة

(*) كانت منطقة « بيل » فى عام ١٥٠٠ مقصورة على كونتيات دبلن وميث واوث

وجزء من كيلدار .

الإنجليزية في منطقة بيل ، ودفع نائبه الإقطاعي سير إدوارد بويننجز في المجلس النيابي الأيرلندي « قانون بويننج » المذل (١٤٩٤) ، ونص على أنه ليس للمجلس النيابي الأيرلندي أن يعقد المستقبل حتى تكون كل مشروعات القوانين المقدمة له قد وافق عليها الملك والمجلس الخاص في إنجلترا .

وأصبحت الحكومة الإنجليزية في أيرلندا ، بعد أن أضعفت إلى هذا الحد ، أشد الحكومات في العالم المسيحي عجزاً وجوراً وفساداً . وكانت حيلتها الأثيرة هي تعيين واحد من سنين زعماء أيرلندا كمندوب لنائب الملك . وتفويضه في شراء أو إخضاع الباقين . وحقق جيرالد إيرل كلدار الثامن ، الذي عين على هذا النحو ، شيئاً من التقدم في هذا الاتجاه وخفف من حدة التمرد بين القبائل ، مما ساعد المظالم الإنجليزية على إبقاء أيرلندا ضعيفة وفقيرة . وعند وفاته (١٥١٣) عين ابنه جيرالد فيتزجيرالد ليخلفه كقائد . وكان لهذا الإيرل التاسع لكلدار سير حياة جارية نمطية للوردات الأيرلنديين . واتهم بالتآمر مع إيرل أف دزموند بالسماح لقوة فرنسية بالنزول إلى أرض أيرلندا ، فاستدعى إلى إنجلترا وحكم عليه بالسجن في البرج . وأطلق هنري الثامن سراحه ، وعينه من جديد نائباً لدى وعده بمساعدة القضية الإنجليزية بإخلاص . وسرعان ما اتهم بسوء الحكم وأحضر إلى إنجلترا مرة أخرى وأرسل من جديد إلى البرج حيث مات خلال عام (١٥٣٤) ، وأعلن ابنه المخلص « سلاكن توماس » (توماس الحريري) فتز جيرالد على الفور الحرب على الإنجليز ، وحارب بشجاعة وتهور أربعة عشر شهراً وقهر وشنق (١٥٣٧) .

وفي هذا الوقت كان هنري الثامن قد أكمل إجراءات انفصاله عن الكنيسة الرومانية . وأمر المجلس النيابي بقحة تميز بها أن يعترف به رئيساً للكنيسة في أيرلندا ، وكذلك في إنجلترا ، فأذعن ، وطلب من جميع الموظفين

الحكوميين في إيرلندا أن يحلفوا يميناً بقبول سيادته الكنسية ، وفرض أن تدفع كل ضرائب العشور الكنسية مذ ذاك إلى الملك . ودخل المصلحون الدينيون إلى الكنائس في منطقة النفوذ الإنجليزي في إيرلندا وحطموا المخافتات والتماثيل الدينية . وأغلقت الأديار جميعاً ما عدا قلة في مكان قصي ، واستولت الحكومة على ممتلكاتها ، وطردها رهبانها على أن يمنحوا معاشاً إذا لم يثروا ضجيجاً . ووزعت بعض الأسلاب على الزعماء الإيرلنديين وقبل معظمهم ، بعد أن رشوا على هذا النحو ، ألقاب نبلاء من الملك الإنجليزي ، واعترفوا بسيادته الدينية وأنكروا قسمهم للبابا (١٥٣٩) (٢٥) . وألغى نظام العشرة ، وأعلن أن إيرلندا مملكة ، وهنرى ملك لها (١٥٤١) .

كان هنرى منتصراً ولكنه فان ، ومات في خلال خمس سنوات من انتصاره . وبقيت الكاثوليكية في إيرلندا . واعتبر الزعماء مروقهم حادثاً عابراً في السياسة وظلوا كالثكة (كما فعل هنرى) ، اللهم إلا فيما يختص بتجاهل البابا ، وظل القساوسة الذين أيدهم في خدماتهم الدينية وتقبلوها محافظين تماماً في العقيدة . ولم تتعرض عقيدة الشعب لأي تغيير أو بالحري اكتسبت حيوية جديدة ، لأنها حافظت على عزة القومية في وجه ملك ينزع إلى الانشقاق ، وفيما بعد أمام ملكة بروتستانتية . وأصبح الكفاح من أجل الحرية أشد مما كان عليه من قبل ، لأنه كان وقتذاك يدور لصالح الجسد والروح .

٣ - ملك من قمة رأسه إلى اخمص قدميه

كان هنرى في عام ١٥٤٠ أعظم ملك يحكم حكماً مطلقاً عرفته إنجلترا . وكان النبلاء النورمنديون القدامى الذين كبسحوا جماح وليام الفاتح ، يخضعون صاغرين في جن ، ونسوا تقريباً العهد الأعظم (المايجنا كارتا) الذي نص

على امتيازاتهم . أما النبلاء الجدد ، الذين أثروا من التجارة وأنعم عليهم الملك ، فقد وقفوا حاجزا أمام الثورات الأرستقراطية أو الدينية . وأذعن له مجلس العموم الذي كان يوما الحامي للغير وللحريات الإنجليزية ، وكان وكلاء الملك وقتذاك قد اختاروه بعناية ، ونحول تقريبا سلطات لم يسبق لها مثيل : الحق في مصادرة الأملاك وتعيين من يشاء خلفا له ، وتجديد العقيدة المحافظة والمهرطقة ، وإرسال رجال للإعدام بعد محاكمة مزيفة ، وإصدار إعلانات لها سلطة القوانين الصادرة من المجلس النيابي « كانت روح الاستقلال الإنجليزية في عهد هنري تشتعل خافتة في قلبها وحب الحرية غدا فاترا (٢٦) » . وقبل الشعب الإنجليزي هذا الحكم المطلق بسبب الخوف من ناحية ؛ ولأنه خيل إليه أنه البديل لحرب ورد أخرى . كان النظام أهم من الحرية .

وأغرت نفس البديلات الإنجليزية بتحمل سيادة هنري على الشؤون الكنسية ، وعند ما رأى هنري أن الكاثوليكية والبروتستانت على استعداد لأن يمسك كل منهما بخناق الآخر ، ورأى أن المواطنين الكاثوليك والسفراء والحكام يتآمرون ضده إلى حد الغزو تقريبا ، اعتقد أن النظام لا يمكن أن يستتب في الحياة الدينية في إنجلترا إلا بتحديد الملك للعقيدة والشعيرة ، وقبل ضمنا حالة السلطة في الدين التي كانت من صنع الكنيسة . وحاول أن يعلى من يجب أن يتلو الكتاب المقدس . وعند ما صادر الأساقفة ترجمة تنال للكتاب المقدس ، أمرهم بإعداد ترجمة أفضل ، وعند ما توانوا طويلا سمح لكرومويل بتفويض مايلز كوفردال في إعداد ترجمة جديدة . وظهرت أول نسخة كاملة بالإنجليزية في زيورخ عام ١٥٣٥ . ونشرت عام ١٥٣٩ طبعات منقحة ، وأمر كرومويل بأن يوضع هذا « الكتاب المقدس العظيم » في كل كنيسة إنجليزية . ومنح هنري « بدافع من الكرم والطيبة للملكيين » المواطنين امتياز تلاوة الكتاب المقدس في بيوتهم ، وسرعان ما أصبح تقليدا

يومياً عند كل أسرة إنجليزية تقريباً . ولكنه كان ينبوعاً للشقاق والإلهام أيضاً ، فقد أثبتت كل قرية مفسرين هواة ، أثبتوا أى شيء أو عكسه بما ورد في الكتاب المقدس ، وتجادل المتعصبون حوله في الكنائس ، وتعرضوا لضربات بشأنه في المحانات (٢٧) . ومنح بعض الرجال الطموحين زوجاتهم أوامر قضائية بالطلاق ، أو احتفظوا بزوجتين في آن واحد ، بحجة أن هذا عمل سليم أباحه الكتاب المقدس (٢٨) . وأسف الملك لحرية التلاوة التي منحها للناس ، وعاد إلى مظاهرة الكاثوليك ، وحث المجلس النيابي عام ١٥٤٣ على سن قاعدة بأنه لا يجوز قانوناً حيازة الكتاب المقدس إلا للنبلاء والملوك ، ولا يجوز لغير القساوسة الوعظ به أو الجدل فيه علناً (٢٩) .

وكان من الصعب على الناس - وحتى على الملك - أن يعرف ما يدور في ذهن الملك ، واستمر الكاثوليك يرسلون إلى المحرقة أو المقصلة بسبب إنكارهم سيادته في الشؤون الكنسية ، والبروتستانت بسبب جدلهم في اللاهوت الكاثوليكي ؛ وعلقت فورست وهو رئيس شعبة المتشددين من الفرنسيين الممثلين في جرينوتش ، رفض أن ينكر ساطة البابا ، على نار وهو مكبل بالأغلال ، وشوى ببطء حتى مات (٣١ مايو سنة ١٥٣٧) (٣٠) .

وقبض على جون لامبرت ؛ وهو بروتستانتي بسبب إنكاره وجود المسيح حقيقة في القربان المقدس ، وحاكمه هنري بنفسه ، وحكم عليه هنري بالموت وأحرق في سميثفيلد (١٦ نوفمبر سنة ١٥٣٨) ومع تزايد تفوذ ستيفن جاردنر أسقف ونشستر مال هنري أكثر وأكثر نحو العقيدة المحافظة . وفي عام ١٥٣٩ أعلن الملك والمجلس النيابي والمجمع الاكايروسي بـ « قانون المواد الستة » موقف الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في موضوعات الحضور الحقيقي للمسيح وعزوبة رجال الاكايروس وأقسام رهبان الدير والقداوات من أجل

المولى ، وضرورة الاعتراف السرى أمام قسيس وكفاية تناول القربان المقدس من ضرب واحد . وكل من ينكر شفهاها أو كتابة ، الحضور الحقيقى للمسيح ، يتعرض للموت حرقاً دون أن تتاح له فرصة لإنكار ما قال أو للاعتراف أو الغفران ، وكل من ينكر أية مادة أخرى يجب أن تصادر أملاكه عند ارتكابه الذنب لأول مرة وتزهق روحه عند ارتكابه له مرة أخرى .

وأعلن أن كل الزيجات التى عقدها القساوسة حتى وقتذاك باطلة ، وأى قسيس يحتفظ بزواجه بعد ذلك يعد مرتكباً لجريمة الخيانة العظمى (٣١) . وكان الناس لا يزالون محافظين من حيث العقيدة ، فوافقوا على هذه المواد ، غير أن كروموويل بذل جهده لتخفيفها عند التطبيق ، وفى عام ١٥٤٠ تحول الملك مرة أخرى ، فأمر بوقف المطاردة بموجب هذا القانون . . . ومع ذلك فإن الأسقفين لا تيمر وشاكستون ، اللذين لم يوافقا على مواد القانون ، عزلا وسجنا . وفى يوم ٣٠ يوليو سنة ١٥٤٠ تعرض ثلاثة من البروتستانت وثلاثة من الكاثوليك للموت فى سميثفيلد فى وفاق تم رغم إرادتهم ، أما البروتستانت فلأنهم حاولوا التشكيك فى بعض العقائد الكاثوليكية ، وأما الكاثوليك فلأنهم رفضوا الاعتراف بسيادة الملك على الشؤون الكنسية (٣٢) . وكان هنرى قوياً شديداً فى الحكم وفى اللاهوت ، وعلى الرغم من أنه احتفظ بمحاشية كثيرة العدد ، وقضى وقتاً طويلاً فى التهام الطعام ، فإنه تعب كثيراً فى الاضطلاع بأعباء الحكم . واختار أعواناً مهرة جاثرين مثله . وأعاد تنظيم الجيش ، وجهزه بأسلحة جديدة ، ودرس آخر ما توصل إليه الخبراء فى التكتيك والاستراتيجية . وبنى أول أسطول بحرى ملكى دائم طهر السواحل والقناة من القراصنة ، وأعد العدة للانتصارات البحرية التى تمت فى عهد إليزابث ، ولكنه فرض على شعبه مكوساً إلى الحد الذى

يحتمله ، وخفض قيمة العملة مراراً ، وصادر الأملاك الخاصة بحجج واهية ، أو طلب « اشتراكات » ، وأنكر ديونه ، واقترض من آل نوجر ، وروج الاقتصاد الإنجليزي مؤملاً أن يعود عليه بدخل إضافي .

وكانت الزراعة في تدهور ، وكان رق الأرض لا يزال منتشرآ . ولم ينقطع تسوير الأراضي لترعى فيها الأغنام وضاعف ملاك الأراضي الجدد ، الذين لم تصدهم تقاليد الإقطاع ، إيجارات الأراضي مرتين أو أربع مرات على مستأجرهم ، بحجة ارتفاع الأسعار ، ورفضوا تجديد عقود الإيجار المنتهية « وشق آلاف من المستأجرين الذين جردوا من أراضيهم المستأجرة طريقهم إلى لندن وطرقوا بشدة أبواب المحاكم لرفع الظلم ، وهو أمر لم يستطيعوا الحصول عليه (٣٣) » .

ورسم مور الكاثوليكي صورة مؤثرة للفلاحين المتسولين (٣٤) ، وندد لاتيهر البروتستانتي بـ « اللوردات الحديثي النعمة الذين يرفعون الإيجارات » ، ورأى مثل لوثر ماضياً مثالياً كاثوليكياً عندما كانت أفئدة الرجال مفعمة بالشفقة والحنان (٣٥) . « وفرض المجلس النيابي عقوبات صارمة على الضرب في الآفاق والتسول . وكان قانون ١٥٣٠ - ٣١ يفرض على كل من يتسول ، ويكون قادراً جسمانياً على العمل ، سواء كان رجلاً أو امرأة ، أن يشد وثاقه إلى عربة وهو عار ويجلد بالسياط في سائر أنحاء المدينة إلى أن يتلطخ جسده بالدم » . وإذا عاد لارتكاب الذنب مرة أخرى تقطع أذنه ، وإذا ارتكب مرة ثالثة تقطع أذنه الأخرى ، ومهما يكن من أمر فإن ارتكاب الذنب للمرة الثالثة كان يعرض المتسول للإعدام (٣٦) . ووجد الفلاحون المبعدون تدريجاً عملاً في المدن وخفضت الإغاثة المقررة للفقراء من وقع الخصاصة . وارتفعت إنتاجية الأرض في آخر الأمر بالزراعة على نطاق واسع بيد أن عجز الحكومة عن تخفيف التحول كان بمثابة فشل لإجرامى قاس للحنكة السياسية .

وأسبغت الحكومة نفسها الحماية على الصناعة بالتعريفات الجمركية : وأفاد أصحاب المصانع من وخص أجر العمل ، الذي تيسر بهجرة الفلاحين للمدن ، وأعدت الطرق الرأسمالية تنظيم صناعة النسيج ، ورفعت طبقة جديدة من الأثرياء ، لتقف إلى جانب التجار في مساندة الملك . وحل القماش محل الصوف باعتباره أهم صادرات إنجلترا . وكانت معظم الصادرات من الضروريات التي تنتجها الطبقة الدنيا ، وكانت معظم الواردات من سلع الترف التي لا يحصل عليها إلا الأغنياء (٣٧) .

وأفادت التجارة والصناعة من قانون صدر عام ١٥٣٦ يغير أسعار الفائدة بواقع ١٠ في المائة . وكان ارتفاع الأثمان السريع في صالح المشروع وبمثابة عقاب حكم به على العمال والفلاحين واللوردات الإقطاعيين من النمط القديم . وارتفعت الإيجارات إلى ١٠٠٠ في المائة بين عامي ١٥٠٠ و ١٥٧٦ (٣٨) . وارتفعت أسعار الطعام من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ في المائة ، وارتفعت الأجور بمقدار ١٥٠ في المائة (٣٩) . وكتب توماس ستار في حوالى عام ١٥٣٧ : « أن الفقر يسود الآن إلى حد يقف فيه أمام أى خير حقيقي ومزدهر للجماعة (٤٠) » .

ووجد أعضاء الطوائف الحرفية شيئاً من الفرج في التأمين والمساعدة المتبادلة ، زودهم بما يسد رمقهم ، أمام الفقر والنار ، غير أن هنرى صادر عام ١٥٤٥ أملاك الطوائف الحرفية (٤١) .

٤ - التنين بثقاعد

أى ضرب من الرجال كان هذا الملك الغول ؟ لقد رسم هولبين الصغير ، الذي جاء إلى إنجلترا حوالى عام ١٥٣٦ ، صوراً شخصية لهنرى وجين سيمور . فالكساء الفاخر يكاد يخفى بدانة الملك ، والأحجار الكريمة

وفرو النماقم ، واليد التي تقبض على سيف محلي بالجواهر ، تكشف عن استعلاء السلطة وزهو رجل لم يجد من يقاومه ، والوجه العريض المكتنز ينم على ميل شديد للذات الحسية ، والأنف دعامة قوة ، والشفتان المضمومتان والعينان القاسيتان تتم على طاغية مستبد سريع الغضب بارد إلى حد القسوة . وكان هنري وقتذاك في السادسة والأربعين ، في أوج مجده السياسي ، ولكن بدأ الضعف يدب في جسده . وقدر له أن يتزوج ثلاثا مرة أخرى ، ومع ذلك لم يرزق بعدها بذرية . ولم ينجب من زوجاته الست سوى ثلاثة أطفال ، عاشوا إلى ما بعد سن الطفولة . وأحد هؤلاء الثلاثة ، وهو إدوارد السادس ، كان معتل الصحة ، ومات في الخامسة عشرة من عمره ، وظلت ماري عاقراً بائسة عندما تزوجت ، أما اليزابث فإنها لم تجرؤ قط على الزواج ، وربما كان ذلك لشعورها بوجود عائق جسماني . وأصابت لعنة شبه العقم أو العيب الجسماني أعظم الأمر الحاكمة اعزازاً بنفسها في التاريخ الإنجليزي .

وكان هنري حاد الذهن وحكمه على الرجال يدل على الفراهة ، وشجاعته عظيمة ، وقوة إرادته هائلة . وكان سلوكه فظا ، ووساوسا تبددت مع شبابه . ومهما يكن من أمر فإنه ظل مع أصدقائه شفوفاً كريماً ، ولطيفاً بشوشاً ، قادراً على كسب ودهم وإخلاصهم . وقد ولد ليكون ملكاً ، وأحيط منذ ولادته بالخضوع والملق ، ولم يجرؤ على معارضته إلا تليلون ، وقد دفنوا بعد أن قطعت رؤوسهم . وكتب مور من سجن البرج : « مما يؤسف له كثيراً ولا شك أن نرى أي أمير مسيحي على استعداد لأن يلبى رغباته بوساطة مجلس يركع أمامه ، وبوساطة رجال دين ضعاف . . . والملق ، فاشتط في ظلم الناس بصورة منجولة (٤٢) ، كان هذا هو المصدر الخارجي لنكوص هنري على عقبيه في الخلق - فقد أدى عدم وجود مقاومة

لإرادته ، بعد وفاة مور ، إلى أن يصبح خائراً معنوياً وبدنياً . ولم يكن أكثر تهاوناً في المجلس من فرانسيس الأول ويبدو أنه بعد حادث آن بولين قد أصبح أشد تمسكاً للزواج بواحدة ، على التوالي ، من شارل الخامس . ولم يكن الانحلال الجنسي أسوأ نقيصة فيه . وكان نهمه للمال لا يقل عن نهمه للسلطة ، وقلما سمح لاعتبارات الإنسانية أن تقف في وجه استيلائه على الأموال ؛ وليس من شك في أن استعداده المقسم بالجحود لقتل النساء اللاتي أحبن أو الرجال ، أمثال مور وكروموويل ، الذين خدموه بإخلاص سنوات طوال ، أمر نحس ، ومع ذلك يمكن القول أنه لم يسفك من الدماء عشر ما سفكه شارل التاسع حسن النية ، عندما أجاز مذبحه سانت بارتولوميو ، أو شارل الخامس عندما صفح عن نهب روما ، أو الأمراء الألمان عندما حاربوا ثلاثين عاماً للحصول على حقهم في تحديد المعتقدات الدينية لرعاياهم .

والأصل الداخلي لفساده هو ما تعرضت له إرادته من إحباط متكرر في الحب والأبوة . فقد خاب أمله طويلاً في الحصول على ابن ، وصد بطريقة خادعة في طلبه المعقول إعلان بطلان زواجه الأول ، وخذعته (كما اعتقد) الزوجة التي خاطر من أجلها بعرشه ، وفقد سريعاً الزوجة الوحيدة التي أنجبت له وريثاً ، وخذعته في الزواج امرأة أجنبية تختلف عنه تماماً في اللغة والمزاج ، وخائنه (كما ظن) زوجة خيل إليه أنها ستحقق له آخر الأمر بيتاً تحيم عليه السعادة - ها هو ملك كان يملك إنجلترا بأسرها ، ولكنه حرم من المباهج العائلية التي يستمتع بها أبسط زوج في مملكته ، وكان يعاني من ألم متقطع بسبب قرحة في ساقه ، وكافح الثورات والأزمات في سائر مدة حكمه ، واضطر في كل لحظة تقريباً أن يتسلح لصد الغزو والخيانة والاختيال - فكيف كان في وسع رجل مثل هذا أن ينمو ويصبح سويماً ، أو يتحاشى الفساد والتورط في الشك والدهاء

والقسوة ؟ وكيف يتأتى لنا ، نحن الذين نغضب من ونخر محنة نتعرض لها ، أن نفهم رجلا جمع في عقله وفي شخصه عاصفة الإصلاح الديني الإنجائزي وثقله ، وحرمة شعبه بخطوات مخوفة بالمخاطر من ولاء جذوره عميقة ، ومع ذلك لا بد أنه كان حرياً بأن يشعر في روحه المنقسمة بدهشة مفتتة - أحرر أمة أو مزق شمل المسيحية ؟

كان الوسط الذي عاش فيه هو الخطر وكذلك السلطة . ولم يكن في وسعه قط أن يعرف المدى الذي يصل إليه أعداؤه ، أو متى ينجحون . وفي عام ١٥٣٨ أمر بالقبض على سير جيوفري بول شقيق ريجينالد . وخشى جيوفري أن يتعرض للتعذيب ، فاعترف بأنه هو وشقيق آخر يدعى لورد مونتاجو ، وسير إدوار فيفيل والمركيز والمركيزة أف إكستر كانوا يتبادلون رسائل تنطوي على خيانة الدولة مع الكاردينال . وظفر جيوفري بالصفح أما إكستر ومونتاجو وآخرون عديدون فقد شنقوا وشطروا إلى أربعة أقسام (١٥٣٨ - ٣٩) ، وأما ليدى إكستر فقد سجن ، ووضعت الكونتيسة أف سالزبوري ، والدة بول وإخوته الأشقاء تحت الحراسة . وعندما زار الكاردينال شارل الخامس في طابطة (١٥٣٩) يحمل له طابلا طائل تحته من بول الثالث يرجو فيه من الإمبراطور أن ينضم إلى فرانسيس في تحريم التجارة مع إنجلترا (٤٣) ، انتقم هنري بالقبض على الكونتيسة ، التي كانت وقتذاك في السبعين من عمرها ، ولعله كان يأمل بالاحتفاظ بها في البرج ، أن يكبح جماح الكاردينال للغزو . كان كل شيء عادلا في لعبة الحياة والموت :

وبعد أن ظل هنري عامين دون أن يتزوج أمر كروموويل أن يبحث له عن حلف بالمصاهرة يقوى سلطانه ضد شارل . فنصح كروموويل بالزواج من أن أخت زوجة الأمير المختار لسكسونيا ، وشقيقة الدوق أف كليفس الذي كان وقتذاك على خلاف مع الإمبراطور . وآلى كروموويل على نفسه

أن يتم هذا الزواج الذى كان يعلق عليه آمالا بتكوين حلف من الولايات البروتستانتية آخر الأمر ، وبهذا يجبر هنرى على إلغاء المواد الست المناهضة للوثر . وأرسل هنرى المصور هولبين لرسم صورة للسيدة ، ولعل كرومويل أضاف بعض التعليمات للفنان ، وجاءت الصورة ، ورأى هنرى أنها محتملة ، فهى تبدو حزينة ، لا تشجع فى الصورة التى رسمها هولبين ، والمعلقة فى متحف اللوفر ، ولكن تقاطيعها ليست أقل وضوحاً من جين سيمور التى رقت لحظة من قلب الملك .

وعندما جاءت آن بشحمها ولحمها ، ووقعت أنظار هنرى عليها (أول يناير سنة ١٥٤٠) مات الحب لدى أول نظرة . وأنغمض عينيه وتزوجها ، وتضرع مرة أخرى أن يرزقه الله بابن يوطد به وراثته العرش فى آل تيودور ، إذ كان مظهر الأمير إدوارد وقتذاك يدل على ضعفه الجسمانى . ولكنه لم يصفح قط عن كرومويل .

وأمر بالقبض على وزيره الذى أفاده أكثر من أى وزير آخر بعد أربعة شهور زاعماً غلظه وفساده . ولم يك يعترض ، فقد كان كرومويل تابعاً يحظى بأكبر نصيب من الكراهية فى إنجلترا - بسبب أصابه ووسائله ونخسته وثروته . وطلب فى سجن البرج أن يوقع بيانات يعارض فيها صحة الزواج . وأعلن هنرى أنه لم يكن قد قدم « رضاه الباطنى » عن الزواج ، وأنه لم يدخل بزواجه قط . واعترفت آن بأنها لا تزال عذراء ووافقت على بطلان الزواج ، مقابل معاش يوفر لها سبيل الراحة . وكرهت أن تواجه أخاها ، فاختارت أن تعيش وحيدة فى إنجلترا ، وكان لها عزاء صغير فى أنها دفنت فى مقابر دير وستمنستر عند وفاتها (١٥٥٧) . وقطعت رأس كرومويل يوم ٢٨ يوليو سنة ١٥٤٠ هـ

وفى اليوم نفسه تزوج هنرى من كاثرين هوارد ، البالغة من العمر

عشرين عاماً ، وهى من أسرة كاثوليكية لا تحيد عن عقيدتها قيد أنملة ، وكان هذا كسباً للحزب الكاثوليكي . وكف الملك عن أن يتقرب من البروتستانت بالقارة ، وعقد صلحاً مع الإمبراطور . وعندما شعر بأنه أصبح أخيراً آمناً فى ذلك الحمى تحول بفكره شمالاً معلقاً الآمال على ضم إسكوتلنده ، وبذلك يكمل دائرة الحدود الجغرافية لبريطانيا ويضمن لها الأمن . وصرفته عن هذا ثورة أخرى فى شمالى إنجلترا . وقبل أن يرحل لقمعها وإخماد مؤامرة دبرت وراء ظهره ، أمر بإعدام جميع المسجونين السياسيين فى البرج ومنهم الكونتيسة أف سالزبورى (١٥٤١) . وانهارت الثورة وعاد هنرى إلى هامبتون كورت يتخبط فى الهموم ، لينشد السلوى عند ملكته الجديدة .

وكانت كاترين الثانية أجمل زوجاته ، وتعلم الملك كيف يحبها تقريباً ، وهو يعتمد أكثر من قبل على الخدمات الجديرة بزوجة ، وحمد الله على الحياة الطيبة التى كان يعيشها ، والتى راوده الأمل فى أن يحققها تحت إشرافها ، ولكن فى اليوم الذى ردد فيه تسبيحة للشكر هذه (٢ نوفمبر سنة ١٥٤١) سلمه رئيس الأساقفة كرانمر وثائق تدل على أن كاترين كانت لها علاقات سابقة للزواج مع ثلاثة خاطبين متعاقبين : واعترف اثنان من هؤلاء وكذلك اعترفت الماكة . وقال السفير الفرنسى فى تقرير له : أن هنرى تملكه حزن شديد ، حتى ساد الاعتقاد بأنه جن (٤٤) . وأمضه الخوف من أن تكون لعنة الله قد حلت بكل زيجه . وكان يميل إلى الصفع عن كاترين ، ولكن قدم إليه دليل على أنها اقترفت الزنا مع ابن عمها بعد زواجها بالملك . وأقرت بأنها استقبلت ابن عمها فى جناحها الخاص فى ساعة متأخرة بالليل ، ولكن حدث هذا فى حضور اليدى روشفورد ، وأنكرت أنها ارتكبت أى ذنب وقتها ، أو فى أى وقت منذ زواجها ، وشهدت ليدى روشفورد بصحة هذه البيانات بقدر ما وصل إلى علمها (٤٥) . بيد أن الحكمة

الملكية أعلنت أن الملكة مذبنة . وفي يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٥٤٢ قطع رأسها في نفس البقعة التي سقط فيها رأس آن بولين قبل ذلك بست سنوات ، أما عشاقها فقد حكم عليهم بالسجن مدى الحياة .

وكان الملك وقتذاك رجلاً محطماً . وأعيت قرحته طب عصره ، وكان الزهرى للذى لم يشف منه تماماً ينتشر وبعيث فساداً في هيكله (٦) . وبعد أن فقد لذة الحياة سمح لنفسه بان يصبح كتلة ضخمة من اللحم ، وكان خداه متهدلين ويكادان يغطيان فكيه ، وكادت عيناه الضيقتان أن تختفيا في تلافيف وجهه . ولم يكن في وسعه أن يسير من غرفة إلى أخرى دون أن يستند إلى أحد . وأدرك أنه لن يعيش إلا بضعة سنوات فأصدر (١٥٤٣) مرسوماً جديداً يحدد فيه وراثه عرشه : يتولاه أولاً إدوارد ثم ماري ثم اليزابث ، ولم يذهب إلى أبعد من ذلك ، لأن من تليهم في سلسلة النسب هي ماري ستيوارت ملكة اسكوتلنده . وقام بمحاولة لكي ينجب ولداً صحيحاً معافى ، بعد أن حثه مجلسه مراراً فبنى بزوجة سادسة (١٢ يوليو سنة ١٥٤٣) . وكانت كاترين بار قد عاشت بعد وفاة زوجين سابقين ، ومع ذلك فإن الملك لم يعد يصر على الزواج من عذارى . وكانت امرأة على حظ من الثقافة والفطنة ، فقامت برعاية مريضها الملك في صبر ، وصالحته مع ابنته اليزابث ، التي طال إهماله لها ، وحاولت أن تلطف لاهوته ، وتخف حماسه للاضطهاد .

ولم تنقطع المشاعل اللاهوتية حتى نهاية حكمه ، فأحرق ستة وعشرون شخصاً بتهمة الهرطقة في الثماني السنوات الأخيرة من عهده . وفي عام ١٥٤٣ أبلغ الجواسيس الأسقف جاردنر أن هنرى فيلمر قال : « إذا كان الرب موجوداً حقاً (في القربان المقدس) فإنى أكون قد أكلت في حياتى عشرين ربا » . وأن روبرت تستوود حذر القسيس عند رفع القربان المقدس ، من أن يترك الرب يسقط ، وأن أنتوني بيرسون وصف كل

قسيس يعظ الناس بأى شىء سوى « كلمة الله » - أى الكتاب المقدس -
يكون لصاً . وأحرق كل هؤلاء الرجال تنفيذاً لأوامر أصدرها الأسقف
الإنجليكاني ، فى مرج أمام القصر الملكى فى وندسور . وانزعج الملك لأنه
وجد أن الدليل الذى قدمه شاهد فى هذه القضايا كان قسماً زوراً ، وأرسل
الجانى الأثيم إلى سجن البرج (٤٧) . وفى عام ١٥٤٦ أدان جاردنر أربعة
آخرين ، وأرسلهم إلى المحرقة لإنكارهم وجود المسيح حقاً فى القربان
المقدس ؛ وكانت إحداهم امرأة شابة تدعى آن اسكيو تشبثت بهرطقتها طوال
خمس ساعات من الاستجواب وقالت فى محاكمتها : « إن ما تسمونه ربكم
قطعة من الخبز ، والدليل على ذلك أنكم لو تركتموها فى صندوق لمدة ثلاثة
شهور لتعفنت » . وعذبت حتى أشرفت على الموت لكي تكشف عن أسماء
هراطقة آخرين ، وظلت صامئة لم تنبس ببنت شفة ، وهى تتوجع ،
وسارت إلى حتفها وهى تقول : « إننى سعيدة كواحدة كتب عايتها أن
تتجه للسما (٤٨) » ؛ ولم يكن للملك دور فعال فى هذه المطاردات غير أن
الضحايا استغاثوا به دون جدوى .

واشتبك عام ١٥٤٣ فى حرب مع اسكتلنده و « وأخيه المحبوب »
فرانسيس الأول ، وسرعان ما وجد نفسه متحالفاً مع عدوه القديم شارل
الخامس ، ولكى يمول حملاته طالب رعاياه بتقديم « قروض » جديدة ،
وامتنع عن سداد قروض عام ١٥٤٢ وصادر الهبات للجامعات (٤٩) . وحمل إلى
ميدان القتال ليشارك فيها شخصياً وأشرف على حصار بولونيا والاستيلاء
عليها . وغزت جيوشه اسكتلنده ، وهدمت أديار ملروز ودرابورج
وخمس أديار أخرى ، ولكنها هزمت هزيمة منكرة فى أنكرم مور (١٥٤٥) ،
وأبرم اتفاق فيه فائدة مع فرنسا (١٥٤٦) ، واستطاع الملك أن يموت
فى سلام .

وكان وقتذاك ضعيفاً واهناً إلى حد أن الأسر النبيلة أخذت تتنازع

فما بينها على من تكون له الوصاية على إدوارد الصغير . وكان إيرل أف
مورى ، وهو شاعر ، واثقا أن أباه الدوق أف يورك سوف يكون
وصيا إلى حد أنه اتخذ درعا وضع عليه شارة لا تصلح إلا لولى العهد، وقبض
هنرى عليهما معا فاعترفا بأنهما مذنبان وقطع رأس الشاعر فى التاسع من
يناير عام ١٥٤٧ ، أما الدوق فقد سجل فى قائمة انتظار الذين ينفذ فيهم حكم
الإعدام بعد السابع والعشرين فورا .

ولكن الملك مات فى اليوم الثامن والعشرين . وكان فى الخامسة والخمسين
من عمره ، ولكنه عاش عمره عشرات المرات . وترك مبلغا كبيرا . يدفع
لإقامة قداسات لكى ترقد روحه فى اطمئنان .

وقد دام عهده سبعة وثلاثين عاما ، حول إنجلترا إلى بلاد أخرى أعمق
مما كان يتصور أو يشتهى : وفكر فى أن يخلف البابا ، ويترك العقيدة
القديمة التى عودت الناس على القيود الأخلاقية والخضوع للقانون دون
أن يمسا بتغيير ، ولكن تحديه للبابوية الذى صادفه التوفيق ، وتشتيته السريع
للرهبان والمخلفات ، وإذلاله المتكرر لرجال الإكليروس ، ونزعه للملكية
الكثيسة وإسباغ الصفة العلمانية على الحكومة ، كل ذلك أضعف الهبة
الكنسية والسلطة الدينية إلى حد كبير ، مما أدى إلى حدوث التغييرات
اللاهوتية التى أعقبت ذلك فى عهدى إدوارد واليزابث . كان الإصلاح
الدينى الإنجليزى أقل اعتمادا على العقيدة من الإصلاح الدينى الألمانى ،
ولكنهما أثرا نفس النتيجة البارزة - وهى انتصار الدولة على الكنيسة .
ونجا الشعب من براثن بابا معصوم ليقع فى أحضان ملك مستبد .

ولم يغم شيئا من الناحية المادية فقد دفع ضرائب العشور كما دفع من
قبل ، غير أن صافى الفائض عاد إلى الحكومة . وكان كثير من الفلاحين
يزرعون وقتذاك أراضيهم المستأجرة « للورداتهم المحدثين » ، وكانوا

أشد قسوة من الرهبان الذين اتخذ منهم كارلايل مثالا في كتابه :
« الماضي والحاضر » .

ومن رأى وليام كوبت أن « الإصلاح الدينى الإنجليزى » كان فى الحقيقة من وجهه الاجتماعى ، ثورة قام بها الأغنياء ضد الفقراء (٥٠) ، وتشير سجلات الأسعار والأجور إلى أن العمال الزراعيين وعمال المدن كانوا أحسن حالا عند ما ارتقى هنرى العرش منهم عند وفاته (٥١) .

وكانت المظاهر الأخلاقية لهذا العهد سيئة . فقد ضرب الملك للأمة مثلا يدل على فساد خلقه بانغماسه فى علاقات جنسية وبانتقاله الفظ فى خلال بضعة أيام من مصرع زوجة إلى فراش الزوجة التالية وبقسوته الهائلة وعدم أمانته المالية وجشعه المادى . وأشاعت الطبقات العليا الفوضى فى البلاط والحكومة بما دبرته من مؤامرات فاسدة . وتبارى الأعيان مع هنرى فى الاستحواذ على ثروة الكنيسة ، وابتز رجال الصناعة عمالهم وابتزهم الملك : ولم تكمل الصورة باضمحلال البر لأنه بقى هناك الخضوع الحقيقى لحاكم مطلق أنانى من شعب يرتجف هلعاً . ولم ينقذ الموقف سوى شجاعة الشهداء البروتستانت والكاثوليك وأشرفهم فيشر ومور قد اضطهدا فى دورهما .

وإذا تأملنا بمنظور واسع هذه السنوات المريرة نجد أنها كانت تحمل بعض الثمار الطيبة . ولم يكن هناك بد من الإصلاح الدينى : ولا بد أن نذكر أنفسنا مرارا وتكرارا بهذا ونحن نسجل شيطنة القرن الذى ولد فيه ، كان الانفصام عن الماضى عنيفا ومؤلما ولم يكن فى الإمكان زعزعة قبضته على أذهان الناس إلا بتوجيه ضربة وحشية . وعندما أزيل الكابوس أصبحت روح القومية ، التى سمحت فى أول الأمر بالاستبداد ، حماسة شعبية وقوة خلاقية . وأدى تخلص الشؤون الإنجليزية من البابوية إلى ترك الناس تحت رحمة الدولة حينما من الزمن ، ولكنه أجبرهم فى المدى الطويل على الاعتماد

على أنفسهم في كبح جماح حكامهم والمطالبة ، عقدا وراء عقد ، بقدر من الحرية يكافئ ذكاهم . ولن تكون الحكومة قوية دائما كما كانت في عهد هنري الرهيب ، بل سوف تكون ضعيفة في عهد ابن عليل وابنة تطوى جوانحها على مرارة شديدة ، ثم تنهض الأمة بعد أن تتفجر طاقتها المنطلقة من عقابها في عهد ملكة مذنبذة ، ولكنها ظافرة ، وترفع نفسها إلى مرتبة زعامة الفكر الأوروبي . ولو لم تكن إنجلترا قد تحررت على يد أسوأ وأقوى ملوكها فربما كان قدر للعالم أن لا يرى اليزابث وشكسبير .